

المبحث السادس عشر: حكمته ٭ في
الإصلاح وجمع القلوب

حكمته ٭ في الإصلاح والتأسيس:

عندما وصل رسول الله ٭ إلى المدينة
كان فيها مجموعات من السكان متباينة
في عقيدتها، مختلفة في أهدافها،
متفرقة في اجتماعاتها، وكانت لديهم
خلافات بعضها قديم موروث، وبعضها
حديث موجود، وقد كانت هذه
المجموعات على ثلاثة أصناف:

- 1 - المسلمون، من: الأوس،
والخزرج، والمهاجرين.
- 2 - المشركون، من: الأوس،
والخزرج، والذين لم يدخلوا في الإسلام.
- 3 - اليهود، وهم عدة قبائل: بنو
قينقاع، وقد كانوا حلفاء الخزرج، وبنو
النضير، وبنو قريظة، وهاتان القبيلتان
كانتا حلفاء الأوس.

وقد كان هناك خلاف مستحکم بين
الأوس والخزرج، وكانت بينهما حروب
في الجاهلية، وآخرها يوم بُعاثٍ ولا يزال

في النفوس شيء منها⁽¹⁾.

لقد قام النبي ۞ بحل هذه المشكلات كلها، بحكمته العظيمة، وحسن سياسته، وكان حله وإصلاحه لهذه الأوضاع، وجمعه لشملة المسلمين كالآتي:

1- بناء المسجد والاجتماع فيه أول

د بين القلوب:

كان أول عمل قام به ۞ في الإصلاح والتأسيس بناء المسجد النبوي، وأشرك المسلمون جميعاً في البناء، وعلى رأسهم إمامهم محمد ۞، وكان أول عمل تعاوني عام، وُحد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل، وقد كان لكل حي في المدينة - قبل قدوم النبي ۞ - مكان يلتقون فيه، فيسـمرون

() انظر: البداية والنهاية 3/214، وسيرة ابن هشام 2/114، وزاد المعاد 3/62، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 2/159، والرحيق المختوم ص 171، وهذا الحبيب يا محب ص 174، وفقه السيرة لمحمد الغزالي ص 188، والبخاري مع الفتاح، باب هل تنش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد 1/524 (رقم 428)، ومسلم، كتاب المساجد، باب بناء مسجد النبي، 1/373 ۞ 374 (رقم 524).

ويسهرون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على الفرقة والاختلاف، فعندما بُني المسجد كان مركز المسلمين جمعياً، ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل وقت، ويسألون رسول الله ۞ فيعلمهم ويرشدهم ويوجههم⁽¹⁾.

وبهذا تجمعت الأندية، والتفت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحاببت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، ولم تعد في المدينة جماعات، بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات، بل قائد واحد، هو رسول الله ۞، يتلقى من ربه الأوامر والنواهي، ويعلم أمته، فأصبح المسلمون صفاً واحداً، وامتزجت النفوس والعقليات، وتقوت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام⁽²⁾.

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات الخمس فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم

¹ () انظر: البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ۞ وأصحابه 7/239، 240 (رقم 3906).
² () انظر: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 2/161، 162، والرحيق المختوم ص 179.

الإسلام وتوجيهاته، ويجتمعون فيه، وتلتقي فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها وقاعدة لإدارة جميع الشؤون، وبثّ الانطلاقات، وموضعا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

ولهذا ما أقام رسول الله ٭ بمكان في المدينة إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون، فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها، وصلى الجمعة في بني سالم بن عوف، بين قباء والمدينة، في بطن وادي (رايوناء) فلما أن وصل إلى المدينة كان أول عمل عمله بناء المسجد فيها⁽¹⁾.

2 - دعوة اليهود إلى الإسلام بالقول الحكيم:

ومن قواعد الإصلاح والتأسيس التي قام بها النبي ٭ - بعد أن دخل المدينة - الاتصال باليهود بواسطة عبد الله بن سلام - ٭ - ودعوتهم إلى الإسلام.

فعن أنس - ٭ - قال: بلغ عبد الله بن

¹ () انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 74، وفقه السيرة ص 189، وهذا الحبيب يا محب ص 180.

سلام مقدم النبي ۞ إلى المدينة، فأثابه، فقال: إني سأئلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول الله ۞: «خبرني بهن أنفاً حبريل» قال ابن سعد لام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ۞: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها» [قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله]، قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهتٍ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فأرسل نبي الله ۞ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ۞: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فاسلموا»، قالوا: ما نعلمه،

قالوا للنبي ۞ - قالها ثلاث مرات - فقال رسول الله ۞: «**فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» وقالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «**أفرايتم إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «**أفرايتم إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «**أفرايتم إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «**يا ابن سلام اخرج عليهم**»، فخرج فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، [شرنا، وابن شرنا]، ووقعوا فيه⁽¹⁾.

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ۞ من اليهود عند دخول المدينة⁽²⁾.

ومن حسن سياسته ۞ أنه وافق على

(1) البخاري مع الفتح، في كتاب أحاديث الأنبياء 6/362، برقم 3329، وفي كتاب مناقب الأنصار 7/250 (رقم 3911)، 7/272 (رقم 3938)، والألفاظ من = = المواضع الثلاثة، وانظر أيضاً: البخاري مع الفتح 8/165، برقم 4480، والبداية والنهاية 3/210.

(2) انظر: الرجيق المختوم ص 175، وهذا الحبيب يا محب ص 175، وفقه السيرة لمحمد الغزالي ص 198، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 2/173.

دون عقد الأخوة⁽¹⁾.

ذابت عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وتسقطت فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه، وكانت عواطف الأخوة، والإيثار؛ والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملا المجتمع الجديد بأروع الأمثال؛ وفي هذه الأخوة أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية والأخلاقية⁽²⁾.

ولم تكن هذه المؤاخاة معاهدة

نت على الورق فحسب، ولا كلمات قيلت باللسان فقط؛ وإنما كانت مؤاخاة سجلت على صفحات القلوب، وعملا يرتبط بالدماء والأموال، لا كلاما يثرثر به اللسان، إنها مؤاخاة في القول والعمل، والنفيس والمتاع والأمل، في العسر واليسر⁽³⁾.

ومن أروع الأمثال لذلك ما رواه البخاري في صحيحه أخى رسول الله ٭

(١) انظر: زاد المعاد 3/63، والرحيق المختوم ص 180.

(٢) انظر: زاد المعاد 3/63، والرحيق المختوم ص 180.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 2/165، وفقه السيرة لمحمد الغزالي، ص 192.

بن عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، فقال سعد: قد علمت الأنصار أنني من أكثرها مالاً، فساقسم مالي بيني وبينك نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وبسمن، ثم تابع الغدوة ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرة، فقال النبي ﷺ: **«مَهِيم؟»**⁽¹⁾ قال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: **«ما سقت فيها؟»** قال: وزن نواة من ذهب، أو نواة من ذهب، فقال: **«أولم ولو بشاة»**⁽²⁾.

وهذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة صائبة، وحل رائع لكثير من المشكلات التي كان يواجهها المسلمون.

4 - التربية الحكيمة:

(1) مهيم: كلمة استفهام، أي: ما حالك، وما شأنك؟ أنظر: القاموس المحيط، باب الميم، فصل الميم، ص 1499.

(2) البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب إخوان النبي - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار، 7/112 حديث رقم 3780، 3781، واللفظ من الموضوعين، وانظر: باب كيف أذى النبي ﷺ بين أصحابه، في الكتاب السابق نفسه.

وقد كان | يتعهدهم بالتعليم والترية
وتزكية النفوس، والحث على مكارم
الأخلاق، ويؤدبهم بأداب الود والإخاء
والمجد والشرف والعبادة والطاعة⁽¹⁾.

فقد كان يقول | : «يا أيها الناس:
أفشوا السلام، وأطعموا الطعام،
وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا
الجنة بسلام»⁽²⁾.

ويقول: «لا يدخل الجنة من لا
يأمن جاره بوائقه»⁽³⁾، «المسلم
من سلم المسلمون من لسانه
ويده»⁽⁴⁾.

ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب

(1) انظر: الرحيق المختوم ص 179، 181، 208،
والتاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر 2/165.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب
حدثنا محمد بن بشار 4/652 (رقم 2485)،
وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه، كتاب
الأطعمة، باب إطعام الطعام، 2/1083 (رقم
3251)، والدارمي 1/156، وأحمد 1/165،
2/391، وانظر: صحيح الترمذي، 2/303.

(3) مسلم، في كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء
الجار، 1/68 (رقم 46).

(4) البخاري مع الفتح، في كتاب الإيمان، باب أي
الإسلام أفضل 1/54 (رقم 11)، ومسلم كتاب
الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره
أفضل 1/65 (رقم 41)، واللفظ له.

لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹⁾.

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه⁽²⁾.

ويقول: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا» - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله وعرضه»⁽³⁾.

1 () البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه 1/56 (رقم 13)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه 1/67 (رقم 45).

2 () البخاري مع الفتح، كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد 1/565 (رقم 481)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم 4/1999 (رقم 2585).

3 () مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وتحريم دمه وعرضه وماله 4/1986 (رقم 2564).

وقال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»⁽¹⁾.

وقال: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»⁽²⁾.

وقال: «تعرض الأعمال في كل يوم خميس وإثنين فيغفر الله - عز وجل - في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اركوا⁽³⁾ هذين حتى

1 () البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب الهجر، وقول الرسول ۞ : ((لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث)) 10/491 (رقم 6077)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي 4/1986 (رقم 2560).

2 () أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر 4/1987 (رقم 2565).

3 () اركوا هذين: أي أخرجوا، يقال: ركاه، يركوه ركوا، إذا أخره، انظر: شرح النووي على صحيح

يصطلحها، اركوا هذين حتى يصطلحها»⁽¹⁾

وقال | : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله، هذا نصرتي مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تجزه أو تمنعه من الظلم فذلك نصره»⁽²⁾

وقال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقبته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»⁽³⁾

مسلم 16/122.

1 () أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، 4/1988 (رقم 2565/36).

2 () أخرجه مسلم في كتاب البر، باب انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً 4/1998 (رقم 2584)، بمعناه، وأخرجه أحمد بلفظه 3/99، والبخاري مع الفتح في كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً 5/98 (رقم 2443، 2444)، وكتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه 12/223 (رقم 6952).

3 () البخاري مع الفتح بنحوه في كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز 3/112 (رقم 1240)، ومسلم في كتاب السلام، باب من حق المسلم على المسلم رد السلام (4/1705)، برقم 2162.

وعن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ۞ بسبع ونهايات عن سبع: «أمرنا بعبادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام، ونصر المظلوم، وإبرار المقسم، ونهايات عن خواتيم الذهب، وعن الشرب في الفضة» - أو قال: «في أنية الفضة - وعن المياثر⁽¹⁾، والقسي⁽²⁾، وعن لبس الحرير، والديباج⁽³⁾، والإستبرق⁽⁴⁾».

وقال: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»⁽⁵⁾.

(1) المياثر: سروج من الديباج أو الحرير. الفتح 10/293.

(2) ثياب مصلعة بالحرير: أي فيها خطوط منه. الفتح 10/293.

(3) الديباج والإستبرق: صنفان من الحرير. انظر: فتح الباري 10/307.

(4) البخاري مع الفتح، في كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز 3/112 (رقم 1239)، 5/99، 9/240، 10/96، وانظر مواضع الحديث في البخاري مع فتح الباري 3/112.

(5) مسلم، في كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون 1/74 (رقم 54).

وسئل : أي الإسد لام خير؟ فقال:
**«تطعم الطعام، وتقرأ السلام
 على من عرفت ومن لم
 تعرف»⁽¹⁾.**

ويقول: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي
 تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ،
 مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ
 تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ
 وَالْحَمَى»⁽²⁾.**

وقال : **«م ن لا يرخ م لا
 يرحم»⁽³⁾.**

وقال: **«من لا يرحم الناس لا
 يرحمه الله عز وجل»⁽⁴⁾.**

1 () البخاري مع الفتح في كتاب الإيمان، باب
 إطعام الطعام من الإسلام 1/55
 (رقم 12)، ومسلم في الإيمان باب بيان تفاضل
 الإسلام 1/65 (رقم 39).

2 () البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب رحمة
 الناس والبهائم 10/438 (رقم 6011)، ومسلم في
 كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم
 4/2000 (رقم 2586).

3 () البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب رحمة
 الناس والبهائم 10/438 (رقم 6013)، ومسلم،
 كتاب الفضائل، باب رحمته في الصبيان والعيال
 وتواضعه وفضل ذلك 4/1809 (رقم 2319).

4 () مسلم، في كتاب الفضائل، الباب السابق
 4/1809.

وقال ۞ : «سباب المسلم فسو وقو، وقتاله كفر»⁽⁵⁾.

وسواء وصلت هذه النصوص للأنصار من النبي ۞ مباشرة، أو سمعوا بعضها من المهاجرين الذين سمعوا من النبي ۞ قيل الهجرة، فكل ذلك تربية منه ۞ لأصحابه جميعاً، ولمن بلغته هذه النصوص إلى يوم الدين.

وغير ذلك من النصوص التي ربي بها محمد ۞ أصحابه فقد كان يحثهم على الإنفاق، ويذكر من فضائله ما يشي

ق النفوس والقلوب، وكان يحث على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر لهم فضل الصبر والقناعة، وكان يرغبهم في العبادات بما فيها من الفضائل والأجر والثواب، وكان يربطهم بالوحي النازل من السماء ربطاً موثقاً يقرؤه عليهم ويقرؤونه؛ لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر.

⁵ (البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر 1/110 (رقم 48)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ۞ : ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (رقم 64).

وهكذا رفع | معنوياتهم، ودرّبهم على أعلى القيم والمثل حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال الإنساني.

بمثل هذا استطاع النبي | أن يبني مجتمعاً مسلماً أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلاً بعد أن كان يعيش في ظلمات الجهل والخرافات، فأصبح مجتمعاً يضرب به المثل في جميع الكمال الإنساني، وهذا بفضل الله وحده، ثم بفضل هذا النبي الحكيم، فحريٌّ بالدعاة إلى الله أن يسلكوا مسلكه، ويهتدوا بهديه | (1).

5 - ميثاق المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود؛

بعد أن قام رسول الله | بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، عقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية والنزعات القبلية، ولم يترك مجالاً لتقاليد الجاهلية، وقد وضع في هذه المعاهدة ميثاقاً للمهاجرين والأنصار، متضمناً موادعة اليهود بالمدينة، وهذا من أبرز الجهود التي بذلها | في الإصلاح

1 () انظر: الرحيق المختوم، ص 183.

والتأسيس.

كتب رسول الله ٭ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وأدع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على أموالهم، واشترط عليهم،⁽¹⁾ وشرط لهم .

وهذا الميثاق في غاية الدقة، وحسن السياسة، وكمال الحكمة من النبي ٭، فقد ربط بين جميع المسلمين في المدينة وبين اليهود، فأصبحوا كتلة واحدة، يستطيعون أن يقفوا في وجه كل من يريد أهل المدينة بسوء.

وهذه الخطوات الخمس: بناء المسجد، ودعوة اليهود إلى الإسلام، والمؤاخاة بين المؤمنين وتربيتهم، وكتابة الميثاق، هي التي حل بها النبي ٭ - بفضل الله تعالى - الخلاف المستحکم بين سكان المدينة، وأزال بها جميع آثار الماضي، ووحد بها قلوب المسلمين، وطبق بها النظام المتقن داخل المدينة، ومن ثم انتشر هذا النظام، والدعوة إلى الله من هذه

¹ () انظر: البداية والنهاية لابن كثير 3/224-226، وزاد المعاد 3/65، وانظر: كتابة الميثاق بين المسلمين ويهود المدينة في سيرة ابن هشام 2/119-123.

المدينة إلى جميع أقطار العالم⁽²⁾.

² () انظر: الرجيق المختوم ص 171، 178، 185،
والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 2/166، 2/69،
160، وهذا الحبيب يا محب ص 176، 174.